

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ١٣

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن يختلف عن القتل الخطأ الذي لا يدري به
القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً .
هكذا يشع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش في
فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال في القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أي أن
القاتل قد عاش القتل في تخيله ثم فعله ، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها
القتل أن يراجعه وازعه الديني ، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير
للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله في باله لترجع ،
ومادام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا في سبب هذه الآية :
إن واحداً اسمه يقين بن ضبابه كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً في بني
النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة . فلما وجد هشام قتيلاً ذهب يقين إلى سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وكتب
إليهم أن يدفعوا إلى يقين قاتل أخيه . فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلاً ،
ولكننا نؤتي الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة فعدا يقين
على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتداً وجعل ينشد :

قتلت به فهراً وحلت عظه سراً بني النجار أرياب فارغ
حللت به وترى وأدركت ثوري وكنت إلى الأوثان أول راجع

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر
دمه » أباح دمه ، أي أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد

« مقوس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب : جزاء جهنم ، خلود في النار ، غضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكان جهنم ليست كل العذاب ، ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستفيد بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض من أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفي الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشد من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل نوبة ؟ واختلف العلماء في ذلك ، فعالم يقول : لا نوبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك نوبة . وجاء سهدنا ابن العباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله : ألقاتل عمداً نوبة ؟ قال ابن العباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس : ألقاتل عمداً نوبة ؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن العباس : سألني أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سألني ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أُرهِبته والثاني لم أقتطه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن العباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي يسقطها الله على المتقي . فساعة يوجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته يسأله واحد قائلاً : « أي الإسلام خير ؟ » فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »^(١) . ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أى الأهل أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلاة على ميفاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك » (١)

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكير حول نصها « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث في النار مرة بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

هذا القول يدل على أن لفظ التأيد في « أبداً » فيه ملحوظ يزيد على معنى الخلود دون تأيد . وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأيد ، وأن « خالدين فيها أبداً » تفيد التأيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشيء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزّه عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيلنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طويلاً لا ينتهى ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن يحكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَلَيْتُ لَأَتَكَلَّمَنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَرٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٢٩ قَالُوا الَّذِينَ شَقُّوا فَنِي

النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَيْفٌ وَشَيْءٌ ۝١٣٠ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٣١﴾

(سورة هود)

فكان الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود «إلا ما شاء ربك» والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأييد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول في خلود الجنة :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾

(سورة مود)

وقوله الحق : «إلا ما شاء ربك» تفيد أن الخلود عندهم يتهم . مادام هناك استثناء ، فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيدياً .

وعلياً أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفي هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم : «كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد» وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات هزة إيمانية تعلو على صفائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأي ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : «يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي : لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له . قال : فقرأت الآية : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذي جاءه أو الرؤيا التي أراها له الله بأنه سوف يؤق به يوم القيامة ليسأل لماذا أفنى بالآ توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ، لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك .

نقول ذلك لنعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذي علم علياً . ولكن عمراً ذكر ما جاء في قول الحق : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سنأ ، فقلت له : لو كنت معك لقلت كما قلت : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وقلت أيضاً :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟ تفيد ألا نأخذ كلمة «خالدين فيها» بمعنى التأيد الذي لا نهاية له ، لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه «شبه العمد» أي أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتي إنسان إنساناً آخر ويضربه بالآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بالآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التي لا تقتل غالباً ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا فصاح ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحاً كقتل المسلمين الكافرين في الحرب بينها ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينهنا : يجب أن محتاطوا في هذه المسألة احتياطاً لتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَسَّرُوا لِقَا أَلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ

كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩١﴾

فبأيها المؤمنون حين تضربون في سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تثبتوا : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعاني ، ففيها الحكم وحيثته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمان حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك في متاعه . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شيء ، ولذلك نقول : الشيء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى الآن السرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يجلس الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر - على سبيل المثال - نجده قد تليف ، وأن أي جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر لماذا امتنع ؟ . لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهي ؟ . لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حُرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى في الأشياء غير الضرورية ، فمن الذي قال : إن الله لا يحرم إلا الشيء الضرر ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديبياً للإنسان . ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد الزوج يقول لزوجته : إياك أن تعطى ابناً بعضاً من الحلوى التي أحضرتها . هو يحرم على ابنة الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَيُظَلِّمَنَّ الَّذِينَ هَارُوا عَنْهَا عَلَيْهِمْ ظِلْمَاتُ احِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذي يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمه الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدبر في كثير من الأوقات حكمته في الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التي خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف في حكمة كذا ، ثم بينت لي الأحداث والأيام صدق الله فيها قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، والإيمان هو الخشية ، يا من آمنتم بي إلهاً قادراً حكماً . . اسمع مني ما أريد منكم : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ، والضرب - كما نعرف - هو انفعال الجارحة هل شيء آخر يعنف وقوة . وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب في الأرض ؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فعين يجيئون أن يخرجوا خيراتها ، يقومون بحراثتها حتى ينجوها ، ويرموا البلود ، وبعد ذلك الرى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هي عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول :

﴿ وَاعْرِفُوا أَنَّكُمْ يَضْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَنَفَّوْنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الزمل)

ومادامت المسألة ضرباً في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض نجس من بيننا بالعزق والحرق . وكلما اشتدت حركة الإنسان في الأرض أخرجت له خيراً . والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق للمعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟ .

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد المُنْد . والعدد تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض ، وبحث في الصناعات المختلفة لنتختر الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصناعة . ولذلك يقال في الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد في سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذي يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضع النبل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » ونعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . « وتبينوا » تعني ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تبينتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

وهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلم بن جثامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأشجعي » إحن - أي شيء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » في سرية ، وهي بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعي » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلم » فقال « محلم » : « إن عامراً قد أسلم ليهرب مني . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تنبئ ؟ ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنه يقول : « السلام عليكم » لينقذ نفسه من القتل ؟ فقال « علم » : استغفر لى يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لى يا رسول الله .. فرسول الله يبصيرته الإيمانية يعرف على الفور حال طالب الاستغفار ، فإن قال رسول الله غفر الله لك فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يفل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و « عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحن والبغضاء هي التي جعلته لا يصدق فى أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجامعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صديق جبل وألقوا عليه الحجارة)^(١) .

وعندما كانت تأي آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبي يريد ألا يشتتن الناس في هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبي .. انكسفت الشمس .. وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى .

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابن إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتن أحد ولا يقولن أحد إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يحفظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك « فماذا كان يحدث ؟ » قد تحدث هزة قليلة في جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكن أبوجهل في حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور في وضعها الصحيح : لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يحفظ القوم ألا يعودوا^(١) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتِينُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن لَقِيَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » .

وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتبينوا) بدل من (فتينوا) في قوله الحق :

﴿ إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول : هذه فزاعة من القراءات ، والمعاني ذاتياً ملتقية ، فد « تين » معناها « طلب البيان ليثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بخير نقط وبخير شكل ، وهذا حال غير حالنا ؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصيغة . فد « الباء » تتشابه مع كل من : « الهاء » ، « النون » ، « الدال » ، « الراء » ، « اللام » ، « الميم » ، « النون » ، « الدال » ، « الراء » ، « اللام » ، « الميم » . ولم تكن هذه النقاط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفى ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن

تلقين واتباع للوحى ، ولذلك : « فتيبونا » من تتكون ؟ تتكون من : الـ « قاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقيت الحروف هي الـ « باء » والـ « ياء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تيبوا » ، إنه خلاف في النقط . ولوحظنا النقط لقراءتها على أكثر من صورة ، والذي تتبعه في ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاموا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) .

ولم يحدث خلاف في الـ « صاد » ولكن حدث خلاف في الـ « باء » فهي صالحة لتكون باء أو نوناً ، وكذلك « الفين » يمكن أن تكون « عيناً » وقراءة هذه الآية في قراءة « حفص » :

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل - عليه السلام - من عند الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتصح له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركاناً هي :

- ١ - أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
- ٢ - أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
- ٣ - أن يصح إسنادها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق يقينى متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجهه نحسو وكان للرسم احتمالاً يحسوى
وصحح إنشاده هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الاحزاب)

هذه هي قراءة « حفص » وقرا الحسن : (قال عذابي أصيب به من أشاء) .

صحيح أن كلمة « أشاء » وهي من الإساءة فيها ملحوظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تقرأ مرة « فتبتروا » ومرة تقرأ « فتبينوا » سواء في هذه الآية التي نحن بصددھا ، أو في الآية التي يقول فيها الحق :

﴿ إِنْ جَاءَكَ قُلُوبُ يَنْبِئُوكَ فَبَيِّنُوا ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

والتبين ، القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفضيلة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يفتن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبي يحرم الأمر مع أسامة بن زيد الذي قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ١٤ فليقول : لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذي نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثمة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضي الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » وقال : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخلوا غنيمته ، فنزل الله في ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » (١) .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء في بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيها رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدهم قد نفرخوا ويقى رجل له مال كثير لم يهرج ، فقال لشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لا ذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لي المقداد . يا مقداد أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله خدا ؟ قال : فنزل الله « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » ودل على إليكم السلام ، يعني جاءكم مستسلماً ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقي الأعلام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها في المعنى اللغوي : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرار أو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البزار .

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ، فالكون كله الذي نراه هو عرض وسيبقى يوم
ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا
تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمة والنحافة ، ولون البشرة إذا
ما لرحته الشمس قد يتغير من أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شيء
يمكن أن يذهب في الإنسان ويحىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان
جوهرًا بالنسبة له . فإذا قسمنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ،
فهذا أمر نسي ، وإلا فكل شيء عرض ، وكل شيء زائل « ويبقى وجه ربك
فوالجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » .
وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيها بملكه الذي يلقي السلام ، وقد
يكون عرض الحياة الدنيا - هنا - هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه
وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض في « الحياة الدنيا » نفهم - إذن - أنه
عرض فيما لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن
لفقدان شيء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أي
للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة

فكيف آسى على شيء لها ذهب

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهي
من « الدنو » ومقابلته « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يقوم عرض الحياة
الدنيا التقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، لذلك لا يأخذ هذا
العرض من سيفتله عندما يلقي إليه بالسلام ، لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ
الحياة الدنيا من خلقها . والعقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب
الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تضعه ، بليل أنه معرض
للفتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها « ويعلم تعلقها بالأشياء التي تنفعها أو تضرها ، مثال ذلك : أن الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداً ، ويكون سعيداً أكثر إذا امتلك الغدا والعشاء ، ويكون أكثر سعادة وأطمئناناً عندما يملك في مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشفاقاً عندما يملك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ، فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد في جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك مستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ، ألا تنتهي ؟ ولذلك على الصالح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجيء الحق النفس البشرية التي تنهت إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأمر بالحكم الذي يظهر الخواطر التي تميل في النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادي يبيعون فيه البضائع التي يعيشون من ريعها وريحتها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام « يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم في أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام القوم خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذي سيحدث في أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « يتغفون عرض الحياة الدنيا ، ينطق في كل عصر وفي كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومسكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَوَلَةَ فَصْفٍ يُفْتِكِرُ اللَّهُ مِنْ فُضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَجْتَنُّونَ عَرْضَ الْحَيَّةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَامٌ كَثِيرٌ ﴾

(من الآية ٩١ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وفي هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجموا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذي يلقى السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذي ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترئ على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم .

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق بمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شيء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها في صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر في

المسألة الاقتصادية ، وها هوذا يُميد سبحانه كلمة « نبيّنوا » ، لقد جاءت أولاً كتّمةهد للحيثية ، وهى قوله : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » وتأتى هامنا نتيجة للحيثية « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلأ ، لكنه خير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقد أحد أنه خلقنا ثم هداانا إلى الإيمان ليخذلنا في نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لتكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا في رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » . كان الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمراً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسيب ، ويعلم المسألة من أرها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً القى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يثبت المؤمن من نفسه حين يرجعها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدله صاحبه بالسلام ، ويذكر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليم خير ، لا يجوز عليه - سبحانه - ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليبرد قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

ويعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، ويعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد في سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا﴾

ولهذه الآية نصة .. واتصاف الخواطر من هذه النصة يتطلب يقظة نعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف^(١) ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

- كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيت السكينة حوزة كانت دائماً نبقى نزول الوحي على رسول الله - فوقع فخله على فخذي حتى خشيت أن ترضها .

أى أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحي ساعة كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما كان يصنع في كياوية رسول الله تأثيراً مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تثبط تحته فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللخاف : سحابة بيض رقائق ، واحدها لخفة .